امبراطور المانيا والحرب

(٩)

ولي العهد

لم يكن ولي العهد يعنى بالمحافظة على القوانين المدنية رغم تظاهره بشدة المحافظة على القوانين العسكرية . فقد أعيا امرهُ واصر اشقائهِ رجال البوليس وسائقة الاتوموبيلات اذ كثيراً ما كانوا يسيرون باتوموبيلاتهم على اليسار بدل اليمين فلا يسلمون من التصادم الاَّ بشق النفس . واتفق ذات يوم ان ولي العهد كان يسير باتوموبيلهِ في احد الشوارع بسرعة عظيمة خاد بهِ الاتوموبيل الى تمشى السابلة على جانب الشارع واصطدم بعمود المصباح فتحطم اما ولي العهد فلم يصب باذى

وقد رأيتهُ غير مرة يوقف اتوموبيلهُ او جوادهُ ليعطي ولداً او رجلاً فقيراً قطعة نقود . وكانت هذه الطريقة من التصدّق تسرهُ لما فيها من اثر التظاهر وهو مطبوع على حبّ التظاهر وقد ورث هذه الخلة عن ابيهِ فلم يكن يترك فرصة من فرص التظاهر تمرُّ الاَّ اقتنصها ووكل اعوانهُ باذاعة عملهِ في الآفاق . وكان الالمان يقرأون في الصحف كلَّ يوم عن حركاتهِ وسكناتهِ المختلفة في كل جهة كان وكلاء الصحف او اعوانهُ منبثون في كل مكان . امتطى ذات يوم في صفره صهوة جوادهِ وصعد بهِ درجات قصر سان سوسي وعدتها مئة درجة فلم يجهد العد حتى كانت الصحف طافحة باخبار هذا الضرب الفائق من الفروسية

ولية العهد

زرتني ولية العهد سنة ١٩١٣ لاول مرة قصد معالجة اسنانها . وما زالت منذ ذلك الحين تزورني في فترات طويلة او قصيرة . وهي على جانب عظيم من وتزل والذكاء وافكارها روسية اكثر منها المانية فلذلك اطال الالمان في انتقاد الجاج الامير اياها وبقوا كذلك مدة طويلة ثم كفوا عن انتقادها والآن يعجبون بها كل الاعجاب ويحبونها الحبّ الجمّ . وقد قضت مدة طويلة من سني

حداثتها في الرفيرا الفرنسوية حيث طاب لاهلها المصطاف والمترنح فألفت العادات والتقاليد الفرنسوية اقرب الى ذوقها من العادات والتقاليد الالمانية . ولما كانت تعدُّ جهاز العرس اشترت معظمهُ من فرنسا وقضت اكثر وقتها حينئذٍ في باريس فرفع الالمان عقيرتهم بالشكوى قائلين ان جهازاً فرنسوياً لا يليق بسيدة ستكون ولية عهد المانيا . ثم ما عتمت هذه الشكوى ان اضمحلت وما كادت الاميرة تقترن بولي العهد حتى باتت حبيبة الى دوائر البلاط الالماني فبثت فيها الحياة والحركة وقد كانت من قبل جامدة هامدة

رأيتها من اكثر الامراء والاميرات قرباً الى الدمقراطية وبعداً عن الكلفة فقد كنت يوماً اعالج البرنس هنزفلد فسمعنا في الغرفة المحاذية صوت نداء فالتفتنا واذا بولية العهد فيها وكانت قد علمت ان البرنس هنزفلد في مكتبي وهي ولي حميم لها فتبعتها اليهِ . واتفق مرة اخرى اني كنت جالساً اكتب كتاباً بعد الفراغ من عملي واذا بكلب قد دخل غرفتي فخرجت لأرى ما الخبر فوجدت ولية العهد والبرنس هنزفلد قادمتين بلا كلفة ولا سابق موعد ثم خرجتا بعد ان ضربت ولية العهد ميعاداً لزيارتها في الاسبوع التالي

المسئلة البلجيكية

ومما يستحق الذكر هنا ان ام البرنس هنزفلد اميركية . وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بالآراء التي كانت تبديها امامي في الشؤون السياسية نظراً الى عظم صداقتها لولية العهد . زارني ابوها فون سطام بعد نشوب الحرب وقال لي في حديث انهُ يحاول اقناع كل المانيٍ ذي نفوذ بان ضمّ المانيا البلجيك خطأٌ لا يغتفر . قال « ما زلت احاول كل يوم من الصباح الى المساء لكي اعلّم قومي طريق العقل والصواب . فانا ما دمنا نعرف تاريخ بولندا والالزاس واللورين فلم نحمّل انفسنا اعباء اخرى باستبقاء البلجيك لنا . فلا يعلم الاّ الله كيف ان ايدينا ممتلئة . ولا ارى الآن كما اني لم ارَ في الماضي ان المانيا تستطيع الانتصار في هذه الحرب »

ذكرت زبدة هذا الحديث امام الاميرة ابنتهِ وقلت « يظهر ان ابالك كثير التطير بالمستقبل » فقالت « ان ما يحزنني من هذا الحديث هو ان ابي صادق على الدوام فيما يقول ولا اذكر انهُ اخطأ مرة في حكم اصدرهُ »

انتقاد الجيش لولي العهد

زارني ولي العهد ذات يوم فعجبت لما رأيتهُ شاحب الوجه ممتقع السحنة يظهر في عين الناظر اليهِ كأنهُ اكبر مما هو بعشر سنوات . ومن غريب امرهِ ان الناس عامة يعتقدون بانهُ من اكبر زعماء الحزب الحربي الالماني واهل الرأي فيهِ ولكن قومهُ يقولون انهُ ليس من المقدرة والنفوذ بحيث يستطيع ان يكون عاملاً عظيماً من عوامل الحرب . وقد بالغت دوائر الجيش في انتقادهِ في السنة الماضية على عدم مبالاتهِ بالازمة التي تحيط ببلادهِ وعدم نظرهِ الى الحرب بما يقتضي من الاهتمام والجدّ . وكلُّ ما رأيت عليهِ بعد عود المياه الى مجاريها بيننا ومعاودة زياراتهِ لي دلني على ان انتقادهم اياهُ كان في محلهِ . على ان الصحف وهي تكتب ما تكتب بايعاز ما فتئت تقدمهُ بسبب وبلا سبب وتحلهُ المحل الاول في كل نصر حازهُ الجيش كما كانت تصنع مع ابيهِ

الحلى والثياب

ومما لحظت ان ولي العهد كثير العناية بمظهرهِ وباشياء تافهة يصوّر للعاقل ان من كان في منزلتهِ ينكرها في تلك الايام العصيبة ولا يحفل بها . فما برح ايام الحرب مولعاً بالحلي ولعهُ بها ايام السلم وكان يلبس خاتمين جديدين ويباهي بهما كل المباهاة . وارآني ساعة مما يربط حول المعاصم وسألني رأيي فيها وهي اقرب الى الساعات التي تلبسها النساء منها الى الطراز الذي يلبسهُ رجال الجيش . وتحدث حديث المفتخر بجواد جديد اقتناهُ وبرداء جديد كان يلبسهُ ليقيهُ المطر . وقبلما فارقني ذلك اليوم كان قد اجتمع في مكتبي ثلاث اميرات وبضع وصيفات للعناية بهِ فلما فرغت من معالجتهِ لبس رداءهُ المشار اليهِ ودخل غرفة الانتظار وجعل يخطر امام السيدات ويسألهن كيف وجدن هذا الرداء . وظهر لي اذ ذاك ان الحرب آخر ما كان يخطر ببالهِ

وحاولت مراراً ان استطلعهُ رأيهُ في الحالة الدولية ولكن الاجوبة التي كان يجاوبني بها لم تكن ذات شان يذكر . قال لي مرة « يزعم الحلفاء انهُ سيهوزنا الرجال فيما بعد ولكن ساءَ ما يزعمون فان عندنا سيهوزني غلام من النشء الجديد فلا يمضي الاَّ القليل حتى ننظمهم في الجيش ونوجههم الى الميادين فلا خوف من

ان يعوزنا الرجال. على انني اتمنى من صميم فؤادي لو ينتهي هذا الحال. فان هذه الحرب حرب خرقاء كما تعلم »

وبمقابلة ولية العهد به تجد الفرق بينهما عظيماً في الشعور والنظر الى عواقب الامور . فلطالما اعربت امامي عن حزنها على جرحى الجنود وعطفها على عائلات القتلى . وبعد اغراق الباخرة لوزيتانيا قلت لها « يخيل اليّ ان هذه النكبة لا بدّ ان تجرّ اميركا الى الحرب » فقالت « أليس ذلك امراً خطيراً » . قلت « بلى انهُ لكذلك . وعندي انهُ يعسر الآن كبح جماح الاميركيين ولا يدهشني سماعي بان الحرب شهرت بين اميركا وهذه البلاد قبل انتهاء المفاوضات » . فلاح لي ان كلامي اثار هواجسها ولكن لما زارتني ثانية بعد يومين رأيتها كثيرة الابتسام وقالت « ان مخاوفي كانت في غير محلها لان الحرب لا تشهر بين اميركا والمانيا ». وبعد يومين او ثلاثة ايام وافقت المانيا على تخفيف حدة حرب الغواصات . فصدقت الاميرة هذه المرة

ولكن مما يدلُّ على ان معلوماتها لم تكن تستندُ على الدوام من مصادر جديرة بالثقة انهُ لما باتت الحرب بين البلدين قاب قوسين رأيتها فاذا بها لا تزال كثيرة التيمن فقلت لها « وما يحملك على هذا التيمن » . قالت « لقد غاب عنك شيء يا حضرة الدكتور . فان في بلادكم ٢٠ مليوناً من الاميركيين الالمان او الاميركيين الذين هم من اصل المانيّ . واؤكد لك ان نفوذهم كافٍ لمنع الحرب وانهم يبذلون وسعهم لمنع اميركا ان تشهر الحرب على المانيا — لا شك عندي في ذلك البتة »

وبعد قطع العلاقات بين اميركا والمانيا انقطع ولي العهد وعائلتهُ عن زيارتي لانهم خافوا انتقاد الجمهور اياهم بخلاف الامبراطور

الجيش الاميركي والغواصات الالمانية

لعلَّ البرنس اوغست وهلم ابن الامبراطور الرابع اكثر اشقائهِ دمقراطية . وكان يزورني احياناً راكباً اتومبيلاً عادياً ولابساً ملابس ملكية بخلاف اشقائهِ. وهو اول امير من امراء الاسرة المالكة زارني بعد مقتل ولي عهد النمسا وكان لابساً شارة الحداد عليهِ وعلى وجههِ سيماء الغم والحزن الشديد . ومما قال لي ان مقتل ولي العهد سيفضي الى حرب عامة . وكان يحدثني في يناير سنة ١٩١٨ عن

النصيب الذي سيكون لاميركا في الحرب فذكر ان ضباطهُ اخبروهُ ان في الميدان الغربي ٦٠ الف اميركي. قال « ولكننا لا نصدق ذلك فكيف يلفوا ذلك المكان ولم نعلم بهم نحن ولا غواصاتنا . ذلك ليس صحيحاً »

واصيب هذا الامير بمصيبة كادت تودي بهِ بعد نشوب الحرب. فانهُ كان ذات يوم راكباً اتوموبيلهُ فانكسرت دفتهُ فصدم شجرة وقتل السائق وكسرت ساقا الامير في اثني عشر موضعاً واصيب بكسر في فكه ايضاً. فعملت لهُ عمليات كثيرة وبقي يعالج في المستشفى بضعة اشهر ثم زارني متكئاً على عكازين . فلما جلس تناول جريدة باريسية فيها وصف ما جرى لهُ . ومما قالتهُ ان الامير اصيب بما اصيب بهِ وهو يحاول اتقاء طيارة من طيارات الاعداء فاجأتهُ. على ان اعظم مصائبهِ مصابهُ بفكهِ لانهُ في شره الخنزير ويكره ان تمدّ الايدي الى زاد ولا يكون لهُ الحظ الاوفر منهُ . فتحك من ذلك ملء شدقيهِ حاسباً انهُ ضرب من المزاح . وبالرغم من حالتهِ لم يحمل على الجريدة حقداً بل ابدى طرباً كثيراً

البرنس يواكيم

هذا الامير اصغر ابناء الامبراطور وهو مثل ولي العهد في كل شيء . دنا من خط النار في بعض المواضع من الميدان الشرقي فاصابتهُ شظية رصاصة جرحتهُ جرحاً خفيفاً ولكنهُ عرج منهُ ولا يزال يعرج الى الآن . والجرح خفيف جداً كما قلت لم يورثهُ من الالم نصف ما اورث اهلهُ من السرور والاغتباط . فان الصحف المؤرخ اليها ما فتئت تصيح منذ اصيب بهذا الجرح متوهة بفضل الاسرة المالكة وعظم وطنيتها الى حدّ ان جرح احد ابناء الامبراطور وسفك دمهُ الملكي الزكي في الخدمة العاملة . ولكن لم يقل لنا احد كيف دنا الامير من خط النار ولماذا. ومع ذلك انعم عليهِ بالصليب الحديدي من الدرجة الاولى. وقد قال ظريف بهذا الصدد متهكماً « صليب من الدرجة الاولى لجرح من الدرجة الثانية »

رصاصة اميركية

دخل ذات يوم محل عيادتي عارجاً وهو يقول « انظر ما فعلت بي رصاصة من رصاصاتكم اللعينة » . قلت « كيف عرفت انها رصاصة اميركية » . قال « ليس عند الروس سوى الرصاص الاميركي » . ولست اعلم كيف تمكن الروس من

أي السرّ الذي يقودُ الفكر الى اختيار الالفاظ الصائبة ، ويعلّم اليد صياغة الجملة الملائمة . وينقصهُ خصوصاً ذلك اللهيب الخفي الذي ينثرُ بين السطور أشباح النور والظلام

ما هي الكلمة ؟

الكلمةُ التي تعيّن الحركة والاشارة والصوت واللون والانفعال ، الكلمة التي تعني امراً دون آخر وتوقظُ عاطفةً دون غيرها ، ما هي وما هو سرُّ انتخابها؟ الابجديةُ لجميع البشر . والناس لا يتفاهمون عادةً الاّ بالكلام . فما هي تلك القدرة المعطاةُ للبعض ليرسموا بالحروف الوجوه ونوع استدارتها ، والشفاه وحدود ثناياها ، والآفاق واتساعها اللانهائي ، والميل وعمقهُ وكواكبهُ ، والنفس وعجائب خفاياها ؟ كيف تنبضُ في الالفاظ المجردة الجامدة حياةٌ سريعةٌ متقدة بثورة الشعور وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتزُّ الالفاظ تارةً كالاوتار وتولول طوراً كامواج البحر العجاج ، وتهمسُ حيناً همساً عجيباً كأنما هو منطلقٌ من سحيق الذراري وميهم الآمال القصوى؟

قال ڤيكتور هوغو ان الكلمة كائنٌ حيٌّ (٦) . وقد تكون خالقاً ساعة تجعل المخيلة ترى مالا يُرى ، وتنظم القرطاس أفقاً مفعماً بالكائنات الجميلة ، وتصبحُ سحراً يعزّ الغائب حاضراً والاضمحلال وجوداً

إنّ للافصاح عن الفكر أساليب جمة ولكن لا يصلحُ للكاتب الواحد الاّ اسلوبٌ واحد ، وهو الذي يتفقُ مع ذاتيته . كلنا عالمٌ ذلك ، وكلنا باحثٌ عن الطريقة التي ... فاجارك الله ، يا ايها الباحث ، من الطريقة التي ... انك لتهوي قبل الوصول اليها ، في دركات التصنع والتكلف والتعمل ، وتتيهُ في فيافي الخلوّ والتقعر والجفاف . واذا حاولتَ النهوض من الدركات او العودة من الفيافي تعثرتْ قدماك وقلمك بذيول الزوائد والحواشي الجاهزة بين المتداولات ، كالحلوى على اطباق حلواني العيد . أو داهمك مرضُ الاختصار الناشف فيشعر قارئك الشقي بأنهُ حُكم عليهِ بسفكِ التين لجريمة مجهولة منهُ ومن البشر اجمعين

(٦) "Car le mot, qu'on le sache, est un être vivant"
Victor Hugo (Les Contemplations)

ان افلاطون الذي اشتهر ببلاغته اشتهاره بفلسفته ظل ينسخ كتابه « الجمهورية » الى عمر الثمانين ليزيده تحسيناً واصلاحاً . ذلك لان الكتابة التي يراها الكثيرون مسألة هينة اكثر الفنون دقة وعسراً . ولا اظن اكتشاف القطب اصعب على الرحالة من اكتشاف الاسلوب (هذا القطب الآخر) على الكاتب الذي عنده شيء يقوله لأن نفسه تفيض به وتحثه على اعلانه . كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة ، فكيف يتيسر نقل هذه الخفة والطاقة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ وكيف تتبع اداة القلم خطوات النفس الوثابة الكثيرة الاهواء ، في تموجها وتحنيها المباغت من الفرح الى الحزن ، ومن التحنان المذيب الى النقمة البركانية ؟ ان ذلك لسر تملص من القواعد والنصوص ، وترفع عن ان تلقيه الضمائر الى الالسنة . وهو كل مقدرة الكاتب او كل ضعفه

كذلك فيه الحكم بالاعدام او بالخلود . وهناك معيار للوقوف على مقدرة الكاتب ومعرفة النقطة المتغلبة لديه ودرجة ادراكه للسر المكنون ، وهو المقابلة بين ما كتبه هو وما كتبه آخرون في الموضوع نفسه

* * *

لنخصص بعض صفحات الباحثة بل جميع فصول « النائيات » لهذا الحكم نجد القلم في يدها آلة دقيقة ماهرة في تدوين ما تريد . ولا اعرف من هو اقدر منها على وضع الكلمة في مكانها بحيث انك لو تعمدت حذف لفظة من جملة كنت باثراً مجموع المعنى . هي تخبرك عن أحقر الاشياء برشاقة وبلاغة لانها مصرية كل المصرية ، اي ان الرشاقة والبلاغة طبيعيتان فيها ، سبق وجودهما عندها قلم الكاتب . وقد وصفت « للكاتب » وصفاً ، وما كانت واصفة الا نفسها في هذه العذلكة التي هي من ادل ما كتبت على جمال اسلوبها :

« اللسان والقلم رسولا القلب الى الناس اوهما جدولان صافيان تنعكس عليهما صورة النفس وما حواليها من الصفات . وان شئت فقل هما سلك كهربائي بين ذهن المرء ومن يخاطبهم او يكتب لهم . تنقل عنه رسالة اخلاقه حرفاً حرفاً بلا زيادة ولا نقصان . والفضائل والرذائل كامنة في الاشخاص لا يوري زنادها الا الاقوال والافعال . فللتكلم والكاتب تظهر اخلاقهما جلياً فيما يقولانه او يخطانه وان حاولا اخفاءها لان الطبع غالب والتطبع مستعل بال قليل الستر ان واوى شيئ تظهر منه اشياء . والفكرة وان جانبتها لا تزال تحوم حواليك وترفرف الى ان تجد لها مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب » (٧)

(٧) « النائيات »

« الفكرة التي تحوم وترفرف » لا تجد عند الباحثة « مقراً تستقر فيه من الجولان والاضطراب » الا البيئة التي جعلتها موضوع اهتمامها . واذا خرجت منها بالفكر حيناً جاء ذلك للمعارضة وتقوية الحجة ، ووجوب قياس القريب على البعيد ، كتمثيلها الطبيعة هذا التمثيل المترسّل :

« فالسماء معقودة على الافق في مصر وهي كذلك معقودة على الافق في اليابان وفي جرينلاند . لم يضع الله لها عمد المرمر في ايطاليا ولا قوائم العاج في السودان ولم يقرّها على حوائط البذر في اليمن . تنيرها الشمس نهاراً (الا في القطبين) والقمر ليلاً وقد نثرت فيها النجوم نثراً الا تيلهب فهو منظوم . ولم يشأ الله وهو قادر ان يجعلها كلها في شكل عقود وتيجان أو يرسمها دوائر مثلثات مرصوصة رص البلاط المفرّن وهي مع ذلك يأخذ جمالها بلب المتأمل المتفكر . والارض بسيطة أيضاً لا تحوّل لنظامها . فالصخر يفتته توالي الريح والمطر فيصير رملاً . والرمل تسفيه الريح ويمجنه المطر فيكون صخراً . والبذر ينبت اذا في ربّ وارضاً صالحة . وما أبسط سوق النبات تظل قائمة ولكنها تميل مع الريح وينقل عنها ثمرها فيتدحرج او يستقط الى الارض » (٨)

وما الذي تظنهُ موجباً لهذه السطور المنمّقة بقلم قدير كما انها تنمّ عن نفس منبسطة الارجاء توزّع فيها حبُّ الطبيعة وتفهّم الجمال ؟ أتحسبهُ مشهد شروق او غروب ، او وقفةً على جبل شاهق ، اوجوبةً بين ضلوع الوادي المخططة بالمياه المتلمعات ؟ انها استهلّت النبذة السابقة بهذا المطلع : « بين الزوجين الحضريين من اهل مصر تكلّف لا يتفق مع ما يريدهُ الله لها من سكون الواحد الى صاحبه وبشذّ عن شواهد الطبيعة وآثارها المرسلة ارسالاً من غير تعقيد ولا ابهام . فالسماء معقودةٌ على الافق في مصر الخ »

اذاً ارادت انتقاد الكلفة بين الزوجين المصريين ليس غير ! ! وان ذلك ليذهلني قليلاً . لأن الفكر الذي يبقى ضيق الحدود ما ظلّ مستقراً على الجزئيات ينفتح منهُ الجناح بانطلاقهِ الى الكليات ، فيستبصرُ معلقاً في آفاق بعيدة ، ويتسع منهُ الكيان ممتداً في تمدد الكون الذي هو جزءٌ منهُ . وحينما يصل الى هذا المقام من النشوة المعنوية ينحسر لثام الظرفية عن صفائح الحياة ويتموّجُ الجزء الحقير غارقاً في الكلّ العظيم ، فيبدو للمفكر بوجهٍ آخر ومعنىً جديد عميق . ولكن باحثة البادية بعد هذه الطيرة الفكرية تهبط الى ضرب مثلٍ عن احد ملوك العين

(٨) « انسانيات »

لتثبت قبح التكلّف وحلاوة البساطة ولتنتقد المرأة التي تقول لزوجها «ياسيدي» او «يابك» فيناديها هو بقوله «يا هانم»!

تُرى الم تكتب النبذة الاولى في يوم ثم عادت فالحقت بها ما يليها في يوم آخر؟

***

انها كجميع النفوس التي أثقل فكرَها ما خلا منهُ فكر الآخرين فكانت بذلك منفردةً عن محيطها — تنجذب جلبة الجمهور ما استطاعت وتستهويها العُزلة حيث يختمر الفكرُ وتنضجُ ثمار التأمل. تحبُّ عيشة القرى والخلاء بقدر ما تنفرُ من المدن ميادين الكذب والمشاجرة والضوضاء. وقد ابدت ميلها هذا في الفقرة الآتية الحسنة:

«قل ما انقى الهواء واعذب الماء واصفى السماء في القرى وما اكذب الحياة واقرب الوفاة في المدن. القرى جبلة لانها على الفطرة. اما المدن فلا تعدم اثراً للتكلف وانزياء. اين دوي الكهرباء من خرير الماء والدخان المتعاقد فوق المداخن من جوّ لا ترى فيه الا تحليق الصقور والا رؤوس النخل الباسقات؟؟ واين وحل الشوارع وعثيرها من ارض كبيت بساط النبات؟؟ واين الرائحة المنبعة من متاذير المنازل وروث الدواب من شذى ازهار الحقول؟؟ بل ما اوصل البصر يرتد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور من نظر لسرحه حيث شئت فلا تجد الا اللانهاية في الفضاء؟؟» (٩)

«اللانهاية في الفضاء»! في المدن مجد النشاط وجلال العمران. ولكنّ عين المفكر في حاجة الى تسريح النظر في المدى الواسع كأنما هي تبحث في أبعاده المترامیات عن حلّ ما غمض عليها من مشاكل الحياة، او كأن القلب الحزين يستخرجُ من عصير الالوان الجوية بلسماً ان لم يكن شافياً لآمته ففيه ما يجلب التلطيف والتسكين

سمعتُ مرةً فتاةً تقول: «ومن ليس جميلاً من هنا (مشيرة الى العينين)؟». وقد كانت مصيبة. ان من جميع اعضاء الجسم وتقاطيع الوجه ليس اكثر من العينين شغوفاً عمّا يألفهُ الذهن من الخواطر وما يلتصقُ بالنفس من الرغبات. العين مرآة السريرة تطلُّ منها جميع الخيالات والاشواق فاذا عرفت عين مرئيء عرفت ما هو اجمالاً وبعض ما طوي عليه. ولئن كان بعض العيون جميلاً دائماً

(٩) «النائبات»

فان جميع العيون جميلة في اوقات معينة ، والمعنى النفسي الاقوى تغلباً على الملكات ينيل العينين تعبيرهما المقيم

لم يكن في عيني باحثة البادية ما يدل على انهما اعتادتا النظر الى داخل الوجدان حيث وراء الجراح والدماء والآمال المهشمة، يلمع بصيص النور الذي لا يخبو وهو السعادة الحقيقية الوحيدة ، لانه من الروح ، والروح ، وفي مأمن من كل شاردة وعادية . ان الباحثة لم تكن على شيء من الروحانية ، وكانت تقدّر الظواهر وتتكىء عليها في اشياء كثيرة ، حتى في تدينها . وعلى رغم ذلك فان ادراك « اللانهاية في الفضاء » كان يتألق احياناً في عينيها الباسمتين الكئيبتين ، في تينك العينين القاتمتين لوناً ومعنىً . لان الاحتياج العنيف المندمج في مطاوي النفس البشرية ، ذلك الاحتياج الدائم الى قوت اثيري ، ليس ليقوم متامة ما تقدمه الارض من غذاء وعزاء . واكثرية الناس الذين لا تسمح لهم شواغلهم وميولهم بالشعور بذلك الاحتياج يطلقون عليه اسم « الخيال » وهو في الواقع خيال بالنسبة اليهم . ولكنه بالنسبة الى الآخرين حقيقة ثمينة قد ائتمن عليها اصفى جواهر الانسان

***

كلنا معجبٌ بفصاحة القرآن ونعزو اليه فصاحة العربية عند المسلمين ، واستقامة لفظهم وجمال منطوقهم ، وفخامة اسلوبهم الكتابي ، لانهم يستظهرون آيهً صغاراً ويستشهدون بها كباراً . الاّ ان فصاحة الكتاب الحكيم وجمالهُ قد عوّدا القوم الكسل الفكريّ . فصاروا اذا ما ارادوا الافصاح عن رأي أو نظرة أهملوا اجهاد القوى المولدة مطمئنين الى ضرب آية قرآنية — أو حكمة شعرية — مثلاً ، تاركين قرائحهم في حالة الجمود مستكنات ، وعليها خيوط العنكبوت تحيم آمنات . بيد ان هذا الانتقاد الذي يصح على الاكثرية لا ينطبق على اقلية لبيبة إن هي استعملت الآية القرآنية عند الحاجة فان لها اسلوبها الخاص . وقد تنسج عباراتها على وزن عبارات القرآن بنزعة فطرية ، واضعة الناطقُ لمعنى شخصي وبشكل جديد يسترقُ السمع ويستأسرُ المخيلة قبل ان يبلغ افق الادراك . وعند الباحثة مثل ذلك احياناً ، كهذه الجمل ذات التفصيل القرآني والموسيقى القرآنية :

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الامة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور ؟ أما والله لو أراد رجالنا عناية واحتراماً لكنا لهم كما يحبون . فما نحن الا مرآة تنعكس علينا صورهم ولنا قلوب تشعر كما يشعرون . فاذا أرادوا من اصلاحنا فليصلحوا من انفسهم والا فلينظروا ماذا هم فاعلون » (١٠)

أظنني قلتُ قبل اليوم ان احد اجزاء شخصيتها لا ينفصلُ عن الاجزاء الاخرى ولا تعمل احدى قواها الاّ بمعاونة جميع القوى . لذلك ترى المصرية ممتزجةً دائماً بالكاتبة ، وتتكلم الناقدة والمصلحة بلسان المسلمة والمصرية ، كأنما هي لا تستطيع تجريد نفسها من نفسها . وترتسم المرأة في كل كلمة تخطها الكاتبة . وما هي الاّ امرأة في البدء ، وامرأة بالتالي ، وامرأة دائماً ! فاذا ذكرت إحدى مزايا النساء ترنح القلم ثملاً بين أناملها وهو يقول :

« البشاشة مفتاح ما أغلق من السعادة ومعوان على قضاء الاشغال يصل نورها الى قلب صاحبها فيفعمه غبطة . وكذلك (اني احذف بسرور هذه الكذلك الزائدة هنا) يلقي شعاعه الكهربائي على من حوله فتنتعش به أرواحهم . وهي جبلة في الكهل كما تجدل في الطفل الا انها ابهى وأشد تأثيراً في المرأة تلك التي تسيطر على القلوب ولا تدري » (١١)

... أو تدري . وهذا لا يقلل من جمال البشاشة

ولو جاز لي تحديد هذا الاسلوب الكتابي لقلت ان لهُ من المزاج العصبي الصفراوي الحرارة التي تكون حيناً حدةً وحيناً نعومة ، ومن الاسلام التنميق والبلاغة . وهو بالجملة مصري أسمر « نغش » جذاب

* * *

ولا يسوغ لي ان اختم هذا الفصل دون التنويه بأمر آخر اشتهرت به دون غيرها بين المسلمات ، وهو الخطابة . ولكن كيف اتكلم عن أمر اجهلهُ وكيف أحكم على خطيب لم اكن يوماً بين المستمعين اليهِ ؟ غاية ما أعلم انها كانت جامعةً لصفاتٍ لا بدّ من توفرها لكل متقدم على ارتقاء للمنابر : أولها واهمها السمباثيا Sympathy وخفة الروح . ثم عذوبة الصوت المنطلق من الصدر ، لان كل صوت ينحدر من الرأس الى الانف يكون ذا نغمة شائكة مزعجة فيفقد قوة التأثير . وان لم يكن الخطيب مؤثراً فلماذا يتكلم ؟ ثم وضوح اللفظ وبلاغة

(١٠) و (١١) « النسائيات »

الوصول الى الامير وهو على ما هو عليهِ من الإجفال وشدة الانفعال . فلو ابدى في الميدان منهما نصف ما كان يبدي في مكتبي وانا اعالج اسنانهُ ما نال الروس منهُ منالاً . وحاولت جرّهُ الى المناقشة في السياسة فلم افلح وقال « خير لكثير من الناس ان يقللوا من الاهتمام بالسياسة والعناية باساليبها »

وقلت لهُ مرة ان الناس يشكون قلة الطعام فاجاب « عندهم طعام كاف . ولكنهم يظنون ان الشكوى خير ما يصنعون . الا يشتكون عندكم في اميركا . وواقع الامر ان الطعام عندهم موفور جداً وانهم لا يعلمون ما يريدون »

ابنة الامبراطور

شاعت عن ابنة الامبراطور الوحيدة اشاعات كثيرة بقيت رائجة حتى يوم زواجها . فمن قائل ان سقف حلقها مشقوق . وقائل ان لسانها معقود . وقائل انها صماء بكماء . وقائل انها مصابة بعاهات اخرى خلقية فلما زارتني في محل عيادتي علمت ان هذه الاشاعات كلها فاسدة ووجدتها سوية الخلق لا عيب فيها وعلى منتهى مكارم الاخلاق . وبعد شبوب نار الحرب بقليل سألتها « كم تدوم الحرب في ظنك » . قالت « مهما قصرت فانها طويلة عليَّ لأن لي فيها بعلاً وستة اشقاء كما تعلم . على اني اخشى ان تطول كثيراً »

وفي زيارة من زياراتها الاخيرة لي كان يصحبها قريبها دوق كمبرلند . فقال لي انهُ يريد ان يكلمني على حدة . فاخذتهُ الى غرفة مجاورة فسألني ان لا اذكر امام احد من الاسرة المالكة انهُ زارني في مكتبي . فدهشت من ذلك ولكن لم يسعني الاَّ اجابة طلبهِ . ثم ودعني وودّع قريبتهُ وهو يقول « أفهمتي ولا واحد من الاسرة المالكة »

ولكني كشفت سرّ المسئلة بعد ذلك بايام . فقد اخبرني ممن كان يغني في اوبرا برونسويك عاصمة الدوق ان مظاهرة عظيمة جرت امام قصر الدوق فطلب المتظاهرون عودتهُ الى ميدان القتال حالاً قائلين « ان ابناءنا وآباءنا يحاربون وانت اطلت المقام هنا . عد اليهم في الميدان والاَّ فاعدهم الينا » . والظاهر ان الامبراطور افهم صهرهُ بصريح اللفظ ان لا يظهر بين الجمهور فلم يشأ الدوق ان يعرف انهُ عصى الامر الى حدّ ان زارني هو وقريبتهُ في برلين »